الباب الرابع

نظرية العمران إسلامية
الأسس والتكوين

- تمهيد
- الأسس الإسلامية
- أعمار الدول
- نظام الحكم
- ابن خلدون يتبنى كتاب طاهر ابن الحسين
- ويتبنى رسالة عمر فى القضاء
- التزام الشريعة
- ملامح المجتمع الخلدونى إسلامية
- نظرية العمران إسلامية المبتدأ والمنتهى

نظرية العمران الإسلامية الأسس والتكوين

(١)

تمهيـــد :

حفلت نظرية العمران بالكثير من الاهتمام عند من درسوا ابن خلدون ، يستوى فى ذلك العلماء العرب والباحثون من غير العرب ، وذهبوا فى توصيفها مذاهب شتى ، واختلفوا فى أصولها ومقاصدها وغاياتها اختلافاً شديداً حتى إن كثيراً منهم كانوا فى مواقفهم طرفى نقيض . لقد نسى أكثر هؤلاء الباحثين أو غفلوا عن حقيقة شخصية ابن خلدون وتكوينه العلمى وبنيته الثقافية . إن ابن خلدون واحد من ألمع علماء المسلمين فى علوم الإسلام ، فهو فقيه ، أصولى ، محدث ، مؤرخ ، لغوى ، أديب ، وقد ولى مناصب دينية إبان وجوده فى المغرب حسبما مر بنا فى مستهل هذا البحث ، وولى فى مصر مناصب دينية رفيعة ، فقد كان شيخ قضاة المالكية ، والقضاء كان آن ذاك – وحسبما هو معروف – منصباً دينيًا ، كما أنه كان يقوم بالتدريس فى الأزهر وغيره من المدارس الشهيرة فى القاهرة ، فهل كان يدرس فيها الفيزياء والكيمياء أو الجبر وحساب المثلثات ؟! لقد كان يدرس بطبيعة الحال العلوم الدينية من تفسير وفقه وحديث وتاريخ . ولكننا مع ذلك نجد الكثرة الساحقة ممن كتبوا عن المفكر الكبير قد أغفلوا أثر هذه النشأة وعمق هذا التكوين الإسلامى الخالص فى فكره ومنجزاته ، وذهبوا يربطون فكره إيجاباً حيناً وسلباً حيناً آخر بأفكار أعلام أوربيين متأخرين ، مثل ميكيافلى ولينين وماركس وشبنجلر ، أو قدامى من أمثال أرسطو وأفلاطون طبقاً لما قدمناه تفصيلا فى الفصل الذى خصصناه لعلماء الغرب وابن خلدون .

فأما العلماء العرب فإن من أهم الكتب التى ظهرت لهم عن ابن خلدون فى الثلث الأول من هذا القرن كتاب « نظرية ابن خلدون التاريخية الاجتماعية »[1] لكامل عياد ، وكتاب « ابن خلدون حياته وتراثه الفكرى »[2] لمحمد عبدالله عنان ، وعبد الرحمن بن خلدون للدكتور على عبد الواحد وافى ، ودراسات عن ابن خلدون لساطع الحصرى . وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطه حسين ، وهى رسالة كتبت بالفرنسية تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة السوربون سنة ١٩١٧ .

إن كامل عياد يرى – بحق – أن ابن خلدون هو الذى ابتدع نظرية علم الاجتماع الإنسانى كاملة ، وبعبارة أخرى هو مبتكر أول معنى علمى تاريخى اجتماعى[3] . هذا ولم ينكر المؤلف صلة ابن خلدون فى حقلى الفلسفة وتدوين التاريخ بالأفذاذ من علماء الإسلام ومفكريه من أمثال مسكويه والبيرونى وابن سينا وابن رشد ، ولكنّه – أى عياد – ينفى أية صلة بين ابن خلدون وحجة الإسلام الغزالى ؛ لأن الغزالى يفصل بين العقيدة والعلم ؛ لأنه يرفض العلم ، وأما ابن خلدون فإنه يفصل بين العقيدة والعلم ؛ لأنه يعطى العلم ذاتيَّة مستقلة[4] .

وإذا كان المجال هنا لا يتسع لمناقشة هذا الرأى ، فإننا نود الإشارة إلى أن العلم الذى رفضه الغزالى هو علوم الحكمة وحدها ، وهى الفلسفة والمنطق ، والشىء نفسه فعله ابن خلدون فى حديث طويل ضمنه فصلاً كاملاً من مقدمته ، هو الفصل الرابع والعشرون ، وجعل عنوانه « فى إبطال الفلسفة وفساد منتحلها »[5] .

ومن الآراء التى تستوقف المرء وتلفت نظره ما ذكره الأستاذ عياد من أن ابن خلدون ارتفع فوق معتقداته الدينية وهو يحقق منجزاته الضخمة ، ويفصل عقيدته

---

(١) برلين ١٩٣٠ .

(٢) القاهرة ١٩٣٢ .

(٣) نظرية ابن خلدون التاريخية الاجتماعية ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٨ .

(٥) المقدمة ص ٥١٤ الطبعة الثالثة بيروت :

عن المعارف الدينية !!! ويبنى نظريته العلمية بطريقة فريدة على المادة التجريبية[٦] ، والحقيقة أن ابن خلدون لم يفعل شيئاً من ذلك ، بل إنه لا يتأتى له فعل ذلك ، فإن تدين أى إنسان لا يصرفه عن العلم ، ولا يوجد دين سماوى فيما أعلم يصادم العلم أو يجافيه ، والإسلام بصفة خاصة لا يشجع على العلم وحسب ، وإنما يفرض على المسلمين أن يتعلموا ، وإن رسول الله ﷺ يقول : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » ، ويحضّ على الرحلة فى طلب العلم مهما كانت بعيدة ، وذلك فى قوله ﷺ : « **اطلبوا العلم ولو فى الصين** » . وإنه من الوضوح بمكان أن ذلك العلم الذى يطلب بعيداً ولو كان فى الصين ليس العلم الدينى ، ولكنه العلم بشقيه الدينى والدنيوى . هذا ، ومن نافلة القول هنا أن الطريقة التجريبية التى أشار إليها المؤلف لا تتنافى مع الإسلام . مادام ليس فيها شىء يحرمه الإسلام . أما كونه عمد إلى التجريبية فليس ذلك مما يتعارض مع عقيدة ابن خلدون أو عقيدة أى مسلم فى شىء .

وبالنسبة للأستاذ الدكتور طه حسين فإنه تابع ابن خلدون فى مقدمته فصلاً فَصْلاً ، وأنكر عليه نظريته التاريخية ، واتهمه بأنه غفل عن تطبيقها على نفسه فى كتاب العبر ، كما ناقشه فى شىء من الحدة فى أكثر نظرياته ، وخصوصاً فكرة العصبية والأحكام التى أصدرها على العرب ، ولعل طه حسين هو أكثر من كتبوا عن ابن خلدون تقليلاً لشأنه ، وأقلهم حماساً لنظرياته ، وأشدهم تجريحاً لشخصه وفكره .

وهناك بين دارسى ابن خلدون من عمد إلى إجراء مقارنة بين فكره وبين الماركسية وانتهى – وهذا أمر طبيعى – إلى أن نظرية ابن خلدون تفوق المادية التاريخية الماركسية وهو ما فعله العالم ك . بريزيج[٧] .

ويذهب المستشرق الإيطالى جابريلى فى بحث عن ابن خلدون إلى التركيز على فكرة العصبية – التى عزا المفكر المسلم إليها أموراً كثيرة فى نظرية العمران – ويقوم

(٦) نظرية ابن خلدون التاريخية ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٧) معجزة نمو الأبحاث التاريخية ص ٢٤ وما بعدها بريسلاو ١٩٣٦ .

ببعض التحليلات التى تنتهى به إلى مفهوم خاص مفاده أن العصبية هى الروح الحزبى والطبقى[٨] ، وربما كان فى هذا المفهوم الكثير من حقيقة المذهب الخلدونى فى العصبية .

وإن كثيراً من العلماء الفرنسيين قاموا كما هو معروف بدراسات موسعة عن ابن خلدون ، ومن بينهم فى الثلث الأول من هذا القرن الأستاذ كازانوفا ، والأستاذ ج. بوتول الذى اهتم بالفلسفة الاجتماعية لابن خلدون ، وأفرد لها كتاباً انتهى فيه إلى عدة تصورات لا نرى فيها شيئاً جديداً ، فقد قرر أن كتاب المقدمة كان استجابة لمشاهداته التجريبية ، وأن مفاهيم ابن خلدون التاريخية والاجتماعية نابعة من فكره الأصيل .

كان ذلك استعراضاً سريعاً لاجتهادات بعض من كتبوا عن فكر ابن خلدون ، منهم العربى ، ومنهم أيضاً الألمانى والإيطالى والفرنسى ، ولا نكاد نجد فيما كتبوا شيئاً يتصل بالعنصر الأساسى فى فكر ابن خلدون ، وهو ثقافته الإسلامية ذات الآفاق الواسعة والأعماق البعيدة ، وكان عليهم من منطلق دقة البحث ومنهجيته أن ينتبهوا إلى ذلك ويتمثلوه فى كل خطوة يخطونها فى دراستهم لشخص ابن خلدون وفكره .

ولمزيد من الإيضاح فإننا نقرر أنه لم ينتبه من دارسى ابن خلدون إلى شخصيته الإسلامية وقيادته الدينية إلا لودفيج جمبلوفتش والمستشرق الكبير هاملتون جبّ ، الذى قرر صراحة أن ابن خلدون لم يكن مسلماً وحسب ، وإنما كان من كبار علماء الدين وأحد كبار فقهاء المالكية ، وأنه لم يضمن فكره رأياً واحداً لا يتفق منطقيًّا مع تعاليم الإسلام ، وأن جميع مفاهيمه إنما هى تطويع المجتمع وتطويره للمبادئ الدينية الإسلامية ، وأن التدهور الاقتصادى الذى حاول ابن خلدون أن يلفت إليه الأنظار ليس إلا نتيجة حتمية لاختلاف التطبيق السياسى مع متطلبات الشريعة الإسلامية[٩] .

---

(٨) العقلية وفلسفة التاريخ عند ابن خلدون : نشرة الأكاديمية الملكية بتورينو ١٩٣٠ المجلد الخامس ص ٤٧٣ وما بعدها .

(٩) الأساس الإسلامى للنظرية السياسية لابن خلدون : مجلة مدرسة الدراسات الشرقية الجزء الأول من المجلد السابع ص ٢٣ وما بعدها .

غير أن الأستاذ جِبّ يكاد يحصر تصوره الإسلامى لفكر ابن خلدون فى النظرية السياسية وحدها ، ولكن الواقع الذى نلمسه هو أن فكر ابن خلدون جميعه إسلامى ، وأن مجتمع العمران الذى أنشأ نظريته من خلاله هو مجتمع إسلامى من كل جوانبه ، سواء فى ذلك نظام الحكم والإدارة والقضاء والمعاملات والعلم والتعليم والاقتصاد والسلوك العام ، وقد يكون لنا بعض التحفظ من الناحية الإسلامية على مبدأ العصبية الذى أولاه ابن خلدون كثيراً من الاهتمام..

(٢)

الأسس الإسلامية

إن الدولة ممثلة فى حكومتها هى صاحبة المسئولية فى الحفاظ على أمن الناس ورفاهيتهم ، والمنوط بها الذود عن الوطن والدفاع عن أراضيه ، والمكلفة السهر على هيبة القانون وتنفيذ أحكامه ، وذلك بإشاعة العدل ودفع الظلم إلى غير ذلك من الوظائف الأخرى التى تضطلع بها الحكومات ، ولقد اتخذت أنظمة الحكم قديماً وحديثاً أشكالاً مختلفة وأنماطاً شتى ، وأخضعت المجتمعات التى تحكمها لمبادئها وأساليبها ، فهناك الحكومات الملكية والجمهورية والديمقراطية والاستبدادية والرأسمالية والشيوعية إلى غير ذلك من الأنماط الكثيرة المعروفة لدى المشتغلين بعلوم السياسة . ومن الأمور المسلم بها أن كثيراً من حكومات العصر الحديث تحمل الرعايا على الخضوع لنظمها حتى ولو كانت هذه النظم مرفوضة من الناس ، ولسنا هنا بسبيل ضرب الأمثلة لذلك ؛ لأن القارئ الخاص والعام يستطيع بغير جهد أن يستحضر لنفسه العشرات من الأنظمة التى ترفضها الأكثريات الساحقة من رعايا هذه الدولة أو تلك .

(٣)

أعمـــار الـــدول

لقد أسلفنا الحديث ورصدنا هذا العنوان فى الباب السابق كواحد من أعمدة نظرية العمران عند ابن خلدون ، ووافقناه على أن للدول أعماراً ، ولكننا لم نتفق معه فى أن عمر كل دولة لا يعدو ثلاثة أجيال ، وكان الأحرى به أن يستعمل مصطلح « مراحل » بدلاً من « أجيال » وبذلك يكون قد حقق الصواب .

وإذا كان ابن خلدون قد ضرب أمثالاً لأعمار الدول وعيّناهُ على بعض الدول مثل المرابطين والموحدين والمرينيين فى المغرب ، وملوك الطوائف فى الأندلس ، والطولونيين والإخشيديين والأيوبيين فى مصر ، والحمدانيين فى حلب ، والبويهيين فى العراق والعراق العجمى ، فإن نظرية أعمار الدول نفسها نظرية قرآنية ، استقى ابن خلدون فكرتها وأساسها من القرآن الكريم الذى كان يحفظه ويفقه شرعته ويعى أحكامه .

إن القرآن الكريم ينص فى آيات كثيرة على أن للدول أعماراً ينتهى كيانها بنهايتها ثم تخلفها دول أخرى أكثر نظاماً وأشد قوة وأوفر صلاحاً ، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ (*) .

والقرية هنا – وفى آيات أخرى القرى – هى الدولة أو الدول ، والقرية الظالمة هنا هى الدولة الفاسدة ، فالظلم هو أشد ألوان الفساد .

ويشدّد الكتاب العزيز على حتمية نهاية أعمار الدول ، وعلى أن للدول أعماراً كأعمار الإنسان وذلك فى القول الحكيم : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (**) .

والشطر الأول من هذه الآية الكريمة متعلق بالرسول ﷺ وكونه لا يملك من أمر نفسه شيئاً من خير أو شر فضلاً عن أن يملك شيئاً من أمر الآخرين ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (**)

(*) سورة الأنبياء الآية ١١ .

(**) سورة يونس الآية ٤٩ .

وإذن فمسألة أعمار الدول هى – فى ظاهرها وباطنها وفى عرضها وجوهرها – نظرية قرآنية استمدها ابن خلدون من الكتاب العزيز تماماً، مثلما استمد كثيراً من أفكاره طبقاً لما هو موضح فى كثير من فصول هذا الكتاب .

تجىء بعد ذلك فكرة ابن خلدون فى تحديد عمر الدولة بثلاثة أجيال ، وقد كان الأصوب أن يحدد عمر الدولة بثلاث مراحل أو ثلاثة أطوار ، وهو ما قد أوضحه القرآن الكريم ، ولعل ابن خلدون قد قصد إلى ذلك ولكن التعبير قد خانه أو تخلى عنه بدافع السرعة ، فقد كتب ابن خلدون المقدمة – طبقاً لما هو معروف – فى ستة شهور ، وهو زمن قصير بالقياس إلى هذا العمل الفكرى الباهر الكبير .

إن المراحل الثلاث أو الأطوار الثلاثة للدولة جاءت فى الكتاب العزيز فى عدد من السياقات ، فالمرحلة الأولى هى نشأة الدولة أو مولدها ، والدولة تولد قوية ذات صلاح على أطلال دولة فاسدة ، وتظل الدولة الصالحة على قيد الحياة مادام صلاحها واستمر عدلها ، وعن هذه المرحلة الأولى يقول الكتاب العزيز على لسان موسى عليه السلام :﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (*)

فهلاك العدو فى الآية الكرية يعنى هلاك دولته ، والاستخلاف فى الارض يكون بميلاد دولة مكان دولة العدو .

والمرحلة الثانية فى حياة الدولة وعمرها هى مرحلة القوة والنماء ورغد العيش ولين الحياة مع الحفاظ على نعم الله والامتثال لأوامره ونواهيه ، وهذه المرحلة تستمد من الآية الكريمة :﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (**)

(*) سورة الأعراف الآية ١٢٩ .
(**) سورة النحل الآية ١١٢ .

إن الدولة هنا كانت فى مرحلة الاستقرار والأمن والازدهار ، وهى المرحلة الثانية أو الطور الثانى من أعمار الدول ، فلما انصرفت عن النعمة المتمثلة فى القوة ورغد العيش ، ومالت إلى البطر والظلم انتهى الأمر بها إلى الانحلال والضياع اللذين هما العامل الأصيل فى المرحلة الثالثة ، ويتمثل ذلك فى الآية الكريمة :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾(٥٥)

فلقد أكّد القرآن الكريم مهلك الدولة أى نهايتها بموعد لا يتعثر ولا يتخلف ، وارتبط هلاك الدولة ونهايتها بفسادها المتمثل فى الظلم الذى يقترفه حكامها أو يمارسه رعاياها .

وأما مبدأ نهاية عمر الدولة فيتمثل فى آيات أخرى من آيات الكتاب العزيز ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾(٥٦)

على هذه الأسس القرآنية يكون للدول أعمار مثل أعمار البشر ، وهو ما سجله ابن خلدون ، وعلى هذه الأسس القرآنية أيضاً تنقسم أعمار الدول إلى ثلاثة أطوار –وليس ثلاثة أجيال– هى طور النشأة والميلاد ، وطور القوة والارتقاء والسيطرة والازدهار ، وطور التفتت والانهيار والسقوط .

هذا ولا يكون ميلاد الدول أو سقوطها إلا بأسباب ومسببات فى نطاق العدل الإلهى ، فالله سبحانه لا يهلك القرى –أى الدول– إلا بذنوب حكامها وانحلال سكانها وإشاعة الظلم بينهم وسريان الفساد فيهم فيقول سبحانه :

---

(٥٥) سورة الكهف الآية ٥٩ .

(٥٦) سورة الإسراء الآية ٥٨ .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾(*)

ويقول سبحانه فى سورة أخرى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾(**) صدق الله العظيم .

(٤)

نظـام الحـكم

إن نظرية العمران عند ابن خلدون بكل جزئياتها تستمد عناصرها من المبادئ الإسلامية ، وليس ذلك بالأمر الغريب ؛ لأن ابن خلدون – حسبما ذكرنا – عالم بارز من علماء المسلمين ، ولولا أن مصطلح رجل الدين غير موجود فى الإسلام لقلنا إن ابن خلدون واحد من أبرز رجال الدين الإسلامى فى عصره ، ذاك إن لم يكن أبرزهم جميعاً ؛ ومن ثم فإن نظام العمران الإنسانى كله يقوم عنده على أساس دينى إسلامى . فإذا ما كان الحديث عن الشئون السياسية بمفهومها العلمانى فإنه يقرر أن أحكام السياسة تضطلع بمصالح الدنيا فقط ، وأما مقصود الشارع بالناس فهو صلاح آخرتهم مع صلاح دنياهم « فوجب بمقضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية فى أحوال دنياهم وآخرتهم »(١٠) .

ويقرر ابن خلدون فى صراحة كاملة وبيان واضح أن الحكومة التى يجب أن

(*) سورة هود الآية ١١٧ .

(**) سورة القصص الآية ٥٩ .

(١٠) المقدمة ص ١٩١ .

تسوس شئون مجتمعه العمرانى هى الحكومة الإسلامية ، ويفرد لذلك فصلاً من أهم فصول المقدمة جعل له عنواناً مثيراً هو « أن العمران البشرى لابدّ له من سياسة ينتظم بها أمره » وهذا الفصل هو الركيزة الأساسية لحقيقة الحكومة الإسلامية عند ابن خلدون ، وفيه ينص على أنه لابدّ للناس فى الاجتماع البشرى أو العمران من وازع حاكم يرجعون إليه ، وأن حكمهم فيه ينبغى أن يستند إلى شرع منزل من عند الله ، يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالثواب والعقاب الذى جاء به مبلغه ، ويضرب ابن خلدون أمثلة لحكومات وثنية كالفرس ، وحكومات بشرية مثالية مفترضة مثل المدن الفاضلة عند الفلاسفة ، وينحيها جانباً لكى يلتفت إلى تقرير الحكومة الإسلامية قائلاً : « وقد أغنانا الله تعالى عنها فى الملة ولعهد الخلافة ؛ لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها فى المصالح العامة والخاصة ، وأحكام الملك مندرجة فيها »[11] .

ويفرق ابن خلدون بين الملك الطبيعى أو العلمانى بلغة عصرنا وبين الخلافة فيقول : إن الملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ، والملك السياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار ، وأما الخلافة فأمرها أعمق صلاحاً ، وهدفها أكثر فعالية ؛ لأنها تستهدف صلاح الناس وسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، « وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط ، فإنها كلها عبث وباطل ، إذ غايتها الموت والفناء ، والله يقول :
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [12]

ويستطرد ابن خلدون فى تبنى مبدأ الحكومة الإسلامية واستنكار المسك الدنيوى فيقرر أن الشرائع السماوية جاءت بحمل الناس على الخضوع لأحكامها ، من عبادة ومعاملة ، وحتى الملك الذى هو طبيعى للمجتمع الإنسانى فقد أجرته على منهاج الدين ليكون الجميع محوطاً بنظر الشارع ، فما كان بمقتضى القهر والغلبة فهو ظلم وعدوان ، وهو لذلك مذموم ، وما كان بمقتضى السياسة وأحكامها فهو مذموم أيضاً ؛ لأنه نظر

---

(١١) المقدمة ص ٣٠٣ .

(١٢) المقدمة ص ١٩٠ . والآية ١١٥ من سورة المؤمنون .

بغير نور الله ، وهنا يتمثل ابن خلدون بالآية الكريمة :
﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[١٣] .

ويتبع ابن خلدون استشهاده القرآنى بتقرير أن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيّب عنهم من أمور آخرتهم ، وأن أعمال البشر كلها عائدة عليهم فى معادهم وغيره ، واستجابة لقول الرسول العظيم : « **إنما هى أعمالكم ترد عليكم** » .

وينتهى ابن خلدون فى توصيف الخلافة على هذا النحو : « والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، وإذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا»[١٤].

هكذا حدد ابن خلدون شكل الحكومة التى تسوس العمران الإنسانى ، وحصر هذا الشكل فى الإطار الإسلامى الصريح .

ويذهب ابن خلدون إلى أن الدعوة الدينية تزيد الدولة قوة ومنعة ، وتضمن لها الغلبة فى الحروب والنصر فى الفتوح ، ويضرب لذلك أمثلة عديدة مثل الفتوح الإسلامية الأولى ، وفيها تغلب المسلمون ولم يزد عدد جيشهم على بضعة وثلاثين ألفاً فى معركة القادسية على جحافل الفرس التى جاوز عددها مائة وعشرين ألفاً من الجنود المدربين ، والشىء نفسه حدث فى معركة اليرموك ، فقد انتصر جيش المسلمين بنفس العدد على جميع جيوش الروم بقيادة هرقل ، وقد زاد عددها على أربعمائة ألف مقاتل .

وفى المحيط الإسلامى حدث شىء من ذلك فى المغرب ، فقد كانت قبيلة زناتة أكثر بداوة من المصامدة وأشد توحشاً – طبقاً لعبارة ابن خلدون – وكان للمصامدة

---

(١٣) سورة النور الآية ٤٠ .

(١٤) المقدمة ص ١٩١ .

الدعوة الدينية باتباع الهدى ، فلبسوا صبغتها -أى الصبغة الدينية- فتضاعفت قوة عصبيتهم فغلبوا زناتة[١٥] .

(٥)

ابن خلدون يتبنى كتاب طاهر بن الحسين

وابن خلدون حين يقرر وجوب وجود الحكومة الإسلامية على رأس المجتمع الإنسانى ، يعمد إلى تفاصيل تطبيق الأحكام فيها ، فينثر كنانة مدخراته الفكرية ويختار منها كتاب طاهر بن الحسين إلى ولده عبد الله حين ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما ، وهو كتاب مشهور من حيث كونه برنامجاً إسلاميًّا كاملاً فى شئون الحكم ، وضع فيه طاهر بن الحسين كل ما وعاه عقله من الأحكام الإسلامية التطبيقية المستمدة من الكتاب والسنة والسلوك الرفيع ، وما ينبغى أن يلتزمه الحاكم من تطبيق فى الإدارة والقضاء والمال والجيش والصحة والعمارة والتعامل مع المرءوسين بخاصة وجمهرة الناس بعامة ، وكتاب طاهر بن الحسين إسلامى الأصول ، أخلاقى النزعة ، شرعى العناصر ، سلوكى التوجيه ، أو كما يقول ابن خلدون : « وصاه بجميع ما يحتاج إليه فى دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية ، وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة »[١٦] وتلك مقتطفات منه :

★ عليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته عز وجل ، ومزايلة سخطه ، واحفظ رعيتك فى الليل والنهار ، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسئول عنه ، والعمل فى ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل ، وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه ، فإن الله

(١٥) المقدمة ص ١٥٨ .

(١٦) المقدمة ص ٣٠٤ وما بعدها .

سبحانه قد أحسن إليك ، وأوجب الرأفة عليك ، بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل فيهم ، والقيام بحقه وحدوده عليهم ، والذبّ عنهم ، والدفع عن حريمهم ، والحقن لدمائهم ، والأمن لسربهم ، وإدخال الراحة عليهم .

★ وليكن أول ما تلزم به نفسك ، وتنسب إليه فعلك ، المواظبة على ما فرض الله عزّ وجل من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك ، وتوابعها على سننها ، من إسباغ الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها ، ورتّل فى قراءتك ، وتمكن من ركوعك وسجودك وتشهّدك ، ولتصرف فيه رأيك ونيتك ، واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك ، وادأب عليها ، فإنها كما قال الله عزّ وجل : « تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكر » ، ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله ﷺ والمثابرة على خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده .

★ ولا تميلنّ عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد ، وآثر الفقه وأهله ، والدين وحملته ، وكتاب الله عز وجل والعاملين به ؛ فإن أفضل ما يتزين به المرء الفقه فى الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به إلى الله عز وجل .

★ وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلها ، فليس شيء أبين نفعاً ولا أجمع فضلاً منه ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد إلى السعادة ، وقوام الدين والسنة الهادية بالاقتصاد ، وكذا فى دنياك كلها ، ولا تقصر فى طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد والإعانة والاستكثار من البر والسعى له إذا كان يطلب لوجه الله تعالى ومرضاته .

★ ولا تتهمن أحدًا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره ؛ فإن إيقاع التهم بالأبرياء والظنون السيئة بهم آثمٌ إثْم ، فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء الظن بهم ، وارفضه فيهم ، يُعِنْكَ ذلك على استطاعتهم ورياضتهم .

★ تفردْ بتقويم نفسك تَفَرُّدَ من يعلم أنه مسئول عما صنع ، ومَجْزِيٌّ بما أحسن ،

ومؤاخذٌ بما أساء ، فإن الله عز وجل جعل الدين حرزاً وعزًّا ، ورفع من اتبعه وعززه ، واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقة الهدى ، وأقم حدود الله تعالى فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه .

★ إذا عاهدت عهداً فأوْفِ به ، وإذا وعدت خيراً فأنجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها ، وأغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وأبغض أهل النميمة ؛ فإن أول فساد أمورك فى عاجلها وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب .

★ لتكن ذخائرك وكنوزك التى تدخر وتكنز : البر والتقوى ، واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم ، والتفقّد لأمورهم ، والحفظ لدمائهم ، والإغاثة للهوفهم ، واعلم أن الأموال إذا اكتنزت وادخرت فى الخزائن لا تنمو ، وإذا كانت فى صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكفّ الأذيّة عنهم ، نمت وزكت ، وصلحت بها العامة ، وترتبت بها الولاية ، وطاب بها الزمان .

★ لا تحقرنّ ذنباً ، ولا تمالئن حاسداً ، ولا ترحمنّ فاجراً ، ولا تصلنّ كفوراً ، ولا تداهنّ عدوًّا ، ولا تصدقنّ تماماً ، ولا تأمنّ غداراً ، ولا توالينّ فاسقاً ، ولا تتبعنّ غاوياً ، ولا تحمدنّ مرائياً ، ولا تحقرنّ إنساناً ، ولا تردّنّ سائلاً فقيراً ، ولا تحسّننّ باطلاً ، ولا تلاحظن مضحكاً ، ولا تخلفنّ وعداً ، ولا تزهونّ فخراً ، ولا تظهرنّ غضباً ، ولا تباينّ رجاء ، ولا تمشينّ مرحاً ، ولا تفرطنّ فى طلب الآخرة .

★ خذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تدخلن فى مشورتك أهل الرفه والبخل ، ولا تسمعن لهم قولاً ، فإن ضررهم أكثر من نفعهم ، وليس شىء أسرع فساداً لما استقبلت به أمر رعيتك من الشح ، واعلم أنك إذا كنت حريصاً (أى بخيلاً) كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلاً ، فإن رعيتك إنما تعقد على محبتك بالكفّ عن أموالهم ، وترك الجور عليهم .

★ تفقّد الجند فى دواوينهم ومكانتهم ، وأدر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم فى معايشهم يذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم ، فيقوى لك أمرهم ، وتزيد قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً .

★ اعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس فوقه شيء من الأمور ؛ لأنه ميزان الله الذى تعدل عليه أحوال الناس فى الأرض ، وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية ، وتأمن السبل ، وينتصف المظلوم ، وتأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة .

★ أنصف الخصْم ، وقفْ عند الشبهة ، وأبْلغ فى الحجة ، ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم ، وتثبت ، وتأنَّ ، وراقبْ ، وانظرْ ، وتفكرْ ، وتَدَبَّرْ ، واعتبرْ ، وتواضعْ لربك ، وارفقْ بجميع الرعية ، وسلّط الحق على نفسك ، ولا تسرعنّ إلى سفك الدماء ؛ فإن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم فلا تبغ انتهاكاً لها بغير حقها .

★ اعلم أنك جُعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً ، وإنما سُمى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيّمهم ، فخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ، ونفذه فى قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم ، واستعمل عليهم أولى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعمل بالسياسة والعفاف ، ووسع عليهم فى الرزق .

★ تعاهد ذوى البأساء وأيتامهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين – أعزه الله تعالى – فى العطف عليهم والصلة لهم ؛ ليصلح الله بذلك عيشهم ، ويرزقك به بركة وزيادة ، وأجْر للأضرّاء من بيت المال ، وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجراية على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دُوراً تأويهم ، وقُوّاماً يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم (يعنى بما يشتهون) . ما لم يؤد ذلك إلى إسراف فى بيت المال .

★ اعتصم فى أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسننه ، وبإقامة دينه وكتابه ، واجتنبْ ما فارق ذلك وخَالَفَهُ ودعا إلى سخط الله عز وجل ، واعرف ما يجمع عمالك من الأموال وما ينفقون منها ، ولا تجمع حراماً ولا تنفق إسرافاً ، وأكثر مجالسة العلما ومشاورتهم ومخالطتهم .

★ ليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله عز وجل رِضاً ، ولدينه نظاماً ، ولأهله عزًّا وتمكيناً ، وللملة والذمة عدلاً وصلاحاً .

فهذه فقرات مجتزأة من الكتاب الذى اختاره ابن خلدون كنموذج لأساس الحكم فى المجتمع الإنسانى الذى ابتكر نظريته ، وإذا كانت هذه الفقرات التى اجتزأناها لا تغنى – على الرغم من وضوح بنيتها الإسلامية – عن قراءة الكتاب جميعه ، فإننا نورد فيما يلى أهم الأسس وأوضح العناصر التى اشتمل عليها :

- الإيمان بالله وأداء الفرائض على أكمل وجه والقيام بحق الله والسير على سنة رسوله ﷺ ، وليكن العمل لله عز وجل برجاء الثواب . وشكر الله على نعمه .
- الملك لله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، فإذا كفر صاحب السلطان نزع منه الملك .
- الاعتصام بالله ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، وإقامة دينه وكتابه ، واجتناب البدع والشهوات .
- العدل بين الناس ، وعدم الميل عنه لقريب أو بعيد ، وإقامة الحدود فى أصحاب الجرائم ، وحسن الظن بالأصحاب ، وعدم اتهام الأبرياء .
- إن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس فوقه شيء من الأمور ؛ لأنه ميزان الله الذى تعدل عليه أحوال الناس فى الأرض ، وبتحقيق العدل فى القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية .

- تفقد الجند فى دواوينهم وأمكنتهم وإدرار أرزاقهم والتوسعة عليهم فى معايشهم تذهب فاقتهم ، فتقوى عزائمهم وتزيد طاعتهم .
- استعمال أولى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم ، والعمل بالسياسة والعفاف .
- الاقتصاد فى الأمور كلها .
- التزام الشورى ممثلة فى الأخذ من أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، واستبعاد أهل الرفه والبخل من المشورة .
- احترام العهود ، وإنجاز الوعود ، والابتعاد عن الكذب .
- توظيف الأموال فى عمارة الإسلام .
- إنشاء دور لمرضى المسلمين (مستشفيات ومصحات) وتعيين أطباء يعالجون أسقامهم ، وتخصيص خدم يقومون على راحتهم .
- تعهد ذوى البأساء (المعوقين وأصحاب العاهات والضعفاء) والأيتام والأرامل بجعل رواتب لهم من بيت المال .
- الاهتمام بالرعية ، والنظر فى حوائجهم ، ومواساة الضعفاء ، وصلة ذوى الأرحام .
- اتقاء الشح فإنه أول ما عصى الإنسان به ربه .
- التفقه فى الدين ، وطلب العلم ، ومصاحبة العلماء ، ومرافقة أولياء الله .
- مداومة الأعمال الصالحة والاستكثار من البر .

يقول ابن خلدون بعد إيراده هذا الكتاب فى ثوب من الإعجاب به والاستحسان له : « حدّث الإخباريون أن هذا الكتاب لمّا ظهر وشاع أمره ، وأعجب به الناس ، اتصل خبره بالمأمون ، فلما قرئ عليه قال : ما أبقى أبو الطيب —يعنى طاهر ابن الحسين— شيئاً من أمور الدنيا والدين ، والتدبير والرأى والسياسة ، وصلاح الملك

والرعية ، وحفظ السلطان ، وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به ، ثم أمر المأمون فكتب به إلى جميع العمال فى النواحى ليقتدوا به ، ويعملوا بما فيه ، ثم يعقب ابن خلدون على الخطاب ومحتواه قائلاً : « هذا أحسن ما وقفت عليه فى هذه السياسة والله أعلم »[١٧] .

إن الأمر الواضح هنا أن ابن خلدون قد أورد هذا الكتاب فى الفصل الخاص بأن العمران لابدّ له من سياسة ينتظم بها أمره ، وأنه قد حدد الخلافة الإسلامية نظاماً للحكم ، ثم جاء بعد ذلك بالكتاب مفصلاً ومعقباً عليه بما قد سلف من إعجاب واستحسان ، كل ذلك ينتهى بنا بما لا يدع مجالاً للشك إلى أن نظام الحكم الذى اختاره ابن خلدون للعمران الإنسانى نظام إسلامى القاعدة والمنبع ، شرعى المبنى والتطبيق .

كان ذلك منهج الحكم فى المجتمع الإنسانى الذى أرسى ابن خلدون قواعده ، وهو منهج يتسم بالشمول ، ولما كان القضاء هو حجر الزاوية فى استقرار أمن المجتمعات ، فإن طاهر بن الحسين قد ألح على ولده فى دقة تطبيقه والتزام العدل فى تنفيذ أحكامه ، وذلك فى عبارته البليغة « إن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس فوقه شىء من الأمور » .

ولكن ابن خلدون يخصّ القضاء فى موضع آخر من المقدمة بمزيد من الاهتمام ؛ لأنه طبقاً لعبارته « من الوظائف الداخلة تحت الخلافة ؛ لأنه منصب الفصل بين الناس فى الخصومات حسماً للتداعى وقطعاً للتنازع ، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة »[١٨] .

فالقضاء وظيفة دينية عند ابن خلدون ، ومصادر أحكامه ووسائل تطبيقه إسلامية محضة ، ولقد تحدث ابن خلدون عن القضاء فى إيجاز ، حيث أحال من يريد الاستزادة من أحكامه على « كتب الفقه » وخصوصاً كتب « الأحكام السلطانية » وإن كان

(١٧) المقدمة ص ٣١١ .

(١٨) المقدمة ص ٢٢٠ .

أشار إلى بعض سلطات القاضى ، مثل النظر فى أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه ، والنظر فى وصايا المسلمين وأوقافهم ، وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء ، والنظر فى مصالح الطرقات والأبنية ، وتصفح الشهود والأمناء والنواب ، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح[١٩] ، ويذكر ابن خلدون أنه كان يعهد إلى بعض القضاة بقيادة الجهاد فى عساكر الصوائف ، فقد كان يحيى بن أكثم يخرج بالصائفة إلى أرض الروم أيام المأمون ، وكذلك كان يفعل منذر بن سعد البلوطى فى إيام عبدالرحمن الناصر .

(٦)

... ويتبنى رسالة عمر فى القضاء

ومثلما اختار ابن خلدون رسالة طاهر بن الحسين إلى ولده عبدالله كمنهج يحتذي فى الحكومة الإسلامية ، فإنه اختار رسالة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى كمنهج أمثل للقضاء فى الإسلام ، وهى رسالة نفيسة حرص كثير من المفكرين المسلمين الكبار على تزيين بعض كتبهم بها ، من أمثال الجاحظ فى البيان والتبيين ، وابن قتيبة فى عيون الأخبار ، وابن عبدربه فى العقد الفريد ، والماوردى فى الأحكام السلطانية وغيرهم ، وها نحن نثبتها فى هذا المقام تأسياً بهم ، فضلاً عن نفاستها وتفردها فى جمع أحكام القضاء ودقة توجيه القضاء[٢٠] :

« أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنّة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ؛ فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آسِ بين الناس بوجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البيّنة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلاّ صلحاً أحلَّ حراماً أو حرّم حلالاً ، ولا

---

(١٩) المقدمة ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢٠) المقدمة ص ٢٢١ .

يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعْتَ اليوم فيه عقلك وَهُدِيتَ فيه إلى رشدك أن تراجع فيه الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، الْفَهْمَ الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب الله ولا سنّة رسوله ، ثم اعرف الأمثال والأشباه ، فقِس الأمور بنظائرها ، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقًّا غائباً أو بَيِّنَةً ، أمداً ينتهى إليه ، فإن أحضر بَيِّنَتَهُ أَخَذْتَ له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية ؛ فإن ذلك أَنْفَى للشك وأَجْلَى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلاَّ مجلوداً فى حدّ ، أو مُجَرَّباً عليه شهادة زور ، أو ظَنِيناً فى نَسَبٍ أَوْ وَلَاءٍ ؛ فإن الله سبحانه وتعالى تولّى منكم السّرائر ، وَدَرَأَ بالبينات والأيمان ، وإياك والغلق والضرر والتأذّى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق ليعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيّته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلّق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه ، شانه الله ، فما ظنك بثواب من عند الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام »[٢١] .

إن ابن خلدون يقرر أن هذا الكتاب تدور عليه أحكام القضاء ، وأنها مستوفاة فيه ، ومن المعروف أن عدداً غير قليل من علماء المسلمين قد خصصوا لكتاب عمر هذا المئات من الصفحات شرحاً وتعليقاً ، باعتباره مصدراً أصيلاً لأصول القضاء فى الإسلام . وفى مقدمتهم ابن قيم الجوزية فى كتابه النفيس « أعلام الموقعين » .

(٧)

الـــتزام الشـــريعة

ابن خلدون لا يحيد عن الصبغة الدينية فى نظام الحكم واتساع العمران ؛ لأن الصبغة الدينية الأصيلة حتى إذا لم تكن إسلامية فإن فيها ضمان العدل وتجنب الظلم

---

(٢١) المقدمة ص ٣٩٠ طبعة دار الكتاب اللبنانى ، ويراجع النص فى الأحكام السلطانية ص ٧١ ، ٧٢ طبعة مصطفى البابى الحلبى ، وأعلام الموقعين ١/٩٠ ، ٩١ طبعة دار الكتب الحديثة .

الذى يؤذى المجتمعات ويخرب العمران ، ويسوق ابن خلدون فى هذا المجال قصة الموبذان صاحب الدين عند الفرس مع كسرى بهرام بن بهرام الذى اقترن ذكره بكثرة الظلم للرعية ، تقول القصة : إن الملك بهرام سمع أصوات البوم فسأل الموبذان عن معنى كلامها ، فقال له : إن بوماً ذكراً يروم نكاح أنثى ، وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب فى أيام بهرام ، فقبل شرطها ، وقال لها : إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية ، وهذا أسهل مرام ، حينئذ تنبه الملك من غفلته ، وخلا بالموبذان وسأله عن مراده ، فقال الموبذان : أيها الملك ، إن الملك لا يتم عزّه إلا بالشريعة ، والقيام لله بطاعته ، والتصرف تحت أمره ونهيه ، ولا قوام للشريعة إلا بالملك ، ولا عز للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل إلى الملك إلا بالعمارة ، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل ، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيّماً وهو الملك ، وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمّارها ، وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال ، وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة ، فتركوا العمارة والنظر فى العواقب وما يصلح الضياع ، وسوّموا فى الخراج لقربهم من الملك ، ووقع الحيف على من بقى من أرباب الخراج وعمّار الضياع ، فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم[٢٢] .

فالشريعة عند ابن خلدون فى أية صورة من صورها هى ضمان للعدالة بين الناس ، إذا ما تحققت تحقق بها عز الملك ، وعزّ الملك لا يتحقق إلا بالعمارة ، ولا سبيل إلى العمارة إلا بالعدل . وإن العدل عند ابن خلدون مفروض من رب العالمين ، مفروض على الملوك من غير المسلمين كالأكاسرة وغيرهم ، طبقاً لما هو مبين فى المثال سالف الذكر ، ومن باب أولى فإن الصبغة الإسلامية فى الحكم ، والعدل أساسها ، هى الأقرب إلى ذهن ابن خلدون ، والأشد وضوحاً فى نظريته ، التى أحكم نسجها

(٢٢) المقدمة ص ٢٨٧ الطبعة الثالثة بيروت ، طبعة دار الكتاب اللبنانى ص ٥٠٨ .

فى إطار بنية إسلامية خالصة ، مدعمة بالآيات القرآنية ، ومحكمة بالأحاديث النبوية ، ومطبقة بأعمال الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من الأكفاء من خلفاء المسلمين .

وفى نطاق اهتمام ابن خلدون بالمجتمع الإنسانى والعمران البشرى الذى جعل النظام الإسلامى صبغة له ، يتحدث عن النبوات والرسالات ، وبالتالى عن الأنبياء والرسل ، ويخص محمداً ﷺ – باعتباره صاحب الشريعة التى يطبقها ابن خلدون على المجتمع الإنسانى – بحديث جليل يتناول فيه جانباً من حياته قبل الرسالة التى لم تدنس بتقاليد الجاهلية ، والجانب الآخر يوضح كيف كان يتلقى الوحى فى حديث فيه شمول وتفصيل[٢٣] .

أما وإن الأنبياء والرسل أصحاب معجزات يجريها الله سبحانه على أيديهم ، فإن ابن خلدون يتناول بالبحث المعجزات والخوارق ويذكر مفاهيم المدارس الإسلامية لها ، من متكلمين ومعتزلة وأشعرية وحكماء وصوفية ، ثم يختم ابن خلدون حديثه فيها مقرراً أن أعظم المعجزات على الإطلاق هو القرآن الكريم قائلاً : « اعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة – القرآن الكريم ، المنزل على نبينا محمد ﷺ ؛ فإن الخوارق فى الغالب تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ، ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه ، والقرآن هو بنفسه الوحى المدَّعَى ، وهو الخارق المعجز ، فشاهده فى عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحى ، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه ، وهذا معنى قوله ﷺ : (**ما من نبى من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحِيَ إلىَّ ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**) يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة فى الوضوح وقوة الدلالة ، وهى كونها نفس الوحى ، كان الصدق لها أكثر لوضوحها ، فكثر المصدق المؤمن ، وهو التابع والأمة »[٢٤] .

---

(٢٣) المقدمة صفحات ٩١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ٩٩ الطبعة الثالثة بيروت .

(٢٤) المقدمة ص ٩٥ .

نقول إن ابن خلدون صمم نظرية العمران أو المجتمع الإنسانى على أنه مجتمع إسلامىّ الحكومة والرعية ، ولما كانت الحكومة هى التى توطد أركان الدولة والمجتمع فإن ابن خلدون يكاد يكون قد خصص المقدمة كلها – إلا فى القليل – لهذا الأمر ، فقد مر بنا تقريره ضرورة أن يكون الحكم خلافة ، وأن الخلافة لحراسة الدين وسياسة الدنيا ، وكيف حدد نظام الحكومة ممثلاً فى كتاب طاهر بن الحسين إلى ولده ، ونظام القضاء ممثلاً فى كتاب عمر إلى أبى موسى ، ولكن ابن خلدون لا يقف بالحكومة الإسلامية عند هذا الحد ، وإنما يفرد فصلاً طويلاً لولاية العهد ، وهل هو جائز فى الحكومة الإسلامية أو غير جائز ؟ وهل هو مفيد لنظام الحكم واستقراره أو العكس ؟ ويجرى ابن خلدون فى هذا المقام بحثاً نفيساً ينبع من درايته بالفقه واستنطاقه الأحكام واستعراضه أحداث التاريخ الإسلامى ، ومن الأمور الجديرة بالاهتمام أنه أقر ولاية عهد معاوية ليزيد ، ونفس الشيء مع كثير من بنى أمية ، وامتد اجتهاده فى ذلك إلى صحة ولاية العهد التى أخذها كل من السفاح والمنصور والمهدى والرشيد من بنى العباس[٢٥] .

ويقدم ابن خلدون دراسات أيضاً عن المناصب فى الدولة الإسلامية ، فيتحدث عن الشرطة ويقرر أنها وظيفة دينية ويقول : إنها كانت من الوظائف الشرعية على عهد العباسيين والأمويين بالأندلس ، والعبيديين بمصر والمغرب ، ثم يحدد اختصاصات صاحب الشرطة[٢٦] .

ثم ينتقل ابن خلدون إلى الحديث عن وظيفة أخرى هى الحسبة ، ويقول « أما الحسبة فوظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الذى هو فرض على القائم بأمور المسلمين ، يعيّن لذلك من يراه أهلاً له ، فيتعين فرضه عليه ، ويتخذ

---

(٢٥) المقدمة ص ٢١٠ وما بعدها .

(٢٦) المقدمة ص ٢٢٢ .

الأعوان على ذلك ، ويبحث عن المنكرات ويعزّر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة »[٢٧] .

وهناك مناصب أخرى اقتضت وجودها طبيعة تطور نظام الحكم رأى ابن خلدون أن التعرف بها مكمل للشكل العام لحكومة المجتمع ، بل إن بعضها كان يرجع إلى عهود سابقة ، فتحدث عن الوزارة والحجابة وديوان الأعمال والجبايات ، وديوان الرسائل وغيرها من المناصب والشارات ، مثل قيادة الأساطيل والسرير والمنبر والسكة والخاتم والطراز وما إلى ذلك من شارات الملك ولزومياته .

(٨)

ملامح المجتمع الخلدونى إسلامية

ولما كان المجتمع الإسلامى الأصيل هو مجتمع العلم والتعلم واقتناص الثقافة والسعى إلى المعرفة ، وأن المسلمين كانوا فى مقدمة الشعوب فى مختلف شئون المعرفة حين كانت أسبابهم معقودة إلى روح دينهم ، فإن ابن خلدون قد عمد فى مجتمعه العمرانى إلى الحديث المطول عن العلوم والمعارف . ولما كان الإسلام يدعو إلى العلم بشقيه : العلم الدينى والعلم الدنيوى ، يعنى العلوم الشرعية والعلوم العقلية ، فإن ابن خلدون يطرز مقدمته بدراسات نفيسة عن العلوم التى هى ضرورة للمجتمع المسلم ، ويقسمها إلى علوم شرعية وعلوم عقلية ، ويخص كل علم بتعريف له يشجع على دراسته ويرغّب فى التعرف عليه . فأما العلوم الشرعية فهى علوم القرآن . ، وعلوم الحديث ، وعلم الفقه ، وعلم الفرائض ، وعلم أصول الفقه ، وعلم الكلام ، وعلم التصوف ، وعلم تعبير الرؤيا ، وأما العلوم العقلية وأصنافها فهى العلوم العددية ، والعلوم الهندسية ، وعلم الهيئة ، وعلم المنطق ، والطبيعيات ، وعلم الطب ، وعلم الفلاحة ، وعلم الإلهيات ، وعلم السحر والطلسمات ، وعلم الكيمياء .

(٢٧) المقدمة ص ٢٢٥ .

ولما كان القرآن عربيًّا ، والرسول ﷺ عربيًّا ، وتعتبر اللغة العربية لهذا السبب لغة شريفة ، أو بعبارة أدق هى لغة الإسلام ، ولا يستطيع أحد الإحاطة بالإسلام وعلومه بدون إجادتها والتبحر فيها ، فقد أفرد ابن خلدون فصلاً طويلاً للحديث عن علوم اللسان العربى والتعريف بها ، وهى النحو ، وعلم اللغة ، وعلم البيان ، وعلم الأدب ، وانقسام الكلام إلى فني النظم والنثر ، وصناعة الشعر ، والموشحات والأزجال .

وفى مجال التربية والتعليم عقد ابن خلدون فصولاً ثلاثة ، أوضح فيها طرائق التعليم فى الآفاق الإسلامية ، وخص بها أهل المغرب ، وأهل الأندلس ، وأهل إفريقية ، وأهل المشرق ، ولقد أوضح الطريقة التى يتبعها كل قطر ، واستحسن منها طريقة أهل الأندلس ، على أنه شدد على ضرورة الابتداء مع الولدان بتعليم القرآن الكريم ؛ لأنه « شعار الدين الذى أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الحديث »[٢٨] .

ومن الطريف أن ما سطره ابن خلدون عن طريقة تعليم المشارقة للناشئة لم يخلُ من خطأ ؛ لأنه كتبه قبل رحلته إلى المشرق ، ولكنه كان حصيفاً فى احترازه حين استعمل عبارة « على ما يبلغنا » ثم أتبعها بعبارة « والذى ينقل إلينا » .

وابن خلدون من العلماء الذين لا يرون استعمال الشدة فى تربية الناشئة وتعليمهم ، بل يرى أنها ضارة ومؤدية إلى أخطار كثيرة ؛ لأن « من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيّق عن النفس فى انبساطها ، ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفاً من انبساط الأيدى بالقهر عليه » .

ويبسط ابن خلدون حديثه فى تربية الصغار وتعليمهم ، عامدا إلى شىء غير قليل

---

(٢٨) المقدمة ص ٥٣٧ .

من تحليل نفسية من يتعرض للقسوة منهم ، مردداً قول عمر رضى الله عنه « من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله » ويوضح ابن خلدون ما قصده عمر قائلاً : « حرصاً على صون النفوس من مذلة التأديب وعلماً بأن المقدار الذى عينه الشرع لذلك أملك له إنه أعلم بمصلحته »[٢٩] .

ويتبنى ابن خلدون وجهة نظر الرشيد فى تربية الصغار ممثلة فى الحديث الذى وجهه إلى خلف الأحمر معلم ولده الأمين حين عهد به إليه . يقول ابن خلدون : « ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده الأمين ، فقال : يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصيّر يدك مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروّه الأشعار ، وعلمه السنن وبَصِّرْهُ بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إيّاها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقَوِّمْهُ ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباها فعليك بالشدة والغِلْظة »[٣٠] .

(٩)

نظرية العمران إسلامية المبتدأ والمنتهى

إن نظرية العمران فى ضوء ما سلف من القول إسلامية المبتدأ والمنتهى ؛ فإن المسحة الفقهية والنزعة الأصولية واضحتان فيها وضوحاً لاينكره ذو عينين ، وابن خلدون فقيه أصولى مجتهد ، وهو أستاذ مارس التدريس فى أرقى جامعات زمانه من القرويين مغرباً إلى الأزهر مشرقاً ، وكانت دروسه إصلاً فى التفسير والحديث

(٢٩) المقدمة ص ٥٤٠ ، ٥٤١ .

(٣٠) المقدمة ص ٥٤١ .

والفقه والأصول والتربية والأدب ، وقد حرص فى كل أفكاره التى عرفت بالنظريات فيما بعد على أن يدعم كلاً منها بما يؤكد إسلاميتها بآية قرآنية أو أكثر ، أو حديث شريف ، أو عمل مأثور لصحابى أو تابعى أو إمام .

ومن ناحية أخرى حرص ابن خلدون على أن يختم كل فصل من فصول المقدمة طال ذلك الفصل أو قصر بآية قرآنية أو أكثر ، أو بحديث نبوى شريف ، أو دعاء إلى الله بالسداد ، أو ابتهال إلى ذاته العليا تقديساً وتمجيداً ، لقد تابعنا كل فصول المقدمة ووجدنا أن المفكر المسلم الكبير قد التزم هذا المنهج التزاماً ، ولا نكاد نستثنى من ذلك إلا عدداً قليلاً من الفصول كان أصلاً قد طرزها بآيات قرآنية شريفة كأمثال تدعم فكره وتوضح رأيه

وحتى ندعم وجهة نظرنا فيما قررناه من أن نظرية العمران إسلامية الأصول والمنطق ، ولكى نرد على مزاعم من ذهب من الدارسين الغربيين إلى أن ابن خلدون يذكر خلال بحثه كثيراً من الآيات القرآنية دون أن يكون لذكرها علاقة جوهرية بتدليله من أمثال شميت وفيمندونك ، فقد اخترنا فصولاً من المقدمة متتابعة متواصلة بعضها فى إثر بعض ؛ لكى نرى نهاية كل فصل كتبه ابن خلدون ، وكيف كان ختامه له ، ومدى العلاقة الجوهرية بين الفصل وخاتمته . وتلك هى الفصول :

- استفتاح المقدمة يختمه بهذا الابتهال والتسبيح «وهو حسبنا ونعم الوكيل». وهو مستمد من الآية القرآنية : ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (٣١)
- فصل فى فضل علم التاريخ ، يختمه بهذا الدعاء «والله الهادى إلى الصواب».
- فصل فى طبيعة العمران ، يختمه بهذا الدعاء والابتهال « والله الموفق للصواب والمعين عليه » .

---

(٣١) سورة آل عمران الآية ١٧٣ .

- فصل فى العمران البشرى ، يختمه بهذا الدعاء والابتهال « والله ولى التوفيق والهداية » .

- فصل فى قسط العمران من الأرض ، يختمه بهذا الدعاء « والله الموفق » .

- فصل فى أن الربع الشمالى من الأرض أكثر عمراناً ، يختمه بهذه الآية الكريمة :
﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (٣٢)

فصل فى المعتدل من الأقاليم والمنحرف ، يختمه بهذا الابتهال « وهو المولى المنعم الرءوف الرحيم » .

- فصل فى أثر الهواء فى أخلاق البشر ، يختمه بهذه الآية الكريمة :
﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣٣) .

- فصل فى اختلاف أحوال العمران فى الخصب والجوع ، يختمه بهذا المعنى القرآنى :
﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ (٣٤)

- فصل فى حقيقة النبوة والكهانة والرؤيا ، يختمه بهذه الآية الكريمة :
﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٥) .

- فصل فى أن جيل العرب فى الخلقة طبيعى ، يختمه بهذا التسبيح والتمجيد « والله سبحانه وتعالى أعلم » .

- فصل فى أن البدو أقدم من الحضر ، يختمه بهذا التمجيد لله « والله أعلم » .

---

(٣٢) سورة آل عمران الآية ١٩٠
(٣٣) سورة البقرة الآية ٢١٣
(٣٤) سورة فصلت الآية ٥٤
(٣٥) سورة النور الآية ١٩

- فصل فى أن أهل البدو أقرب إلى الخير ، يختمه بهذا التمجيد المقرون بالدعاء « والله سبحانه أعلم وبه التوفيق » .

- فصل فى أن البدو أقرب إلى الشجاعة ، يختمه بهذه الآية الكريمة :
﴿ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ (٣٦) .

- فصل فى أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس ، يختمه بهذا المعنى القرآنى « والله الحكيم الخبير » والأصل القرآنى هو :
﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (٣٧) .

- فصل فى أن سكنى البدو لا تكون إلا للقبائل أهل العصبية ، يختمه بهذا الدعاء « والله الموفق للصواب » .

- فصل فى أن العصبية إنما تكون بالالتحام بالنسب ، يختمه بالدعاء والتمجيد المألوف عند العلماء « والله سبحانه وتعالى أعلم » .

- فصل فى أن الصريح من النسب .... إلخ ، يختمه بهذا المعنى القرآنى : « والله وارث الأرض ومن عليها » .

- فصل فى اختلاط الأنساب كيف يقع ، يختمه بهذا الدعاء والتمجيد للذات العلية « والله الموفق للصواب بمنه وفضله وكرمه » .

- فصل فى أن الرئاسة على أهل العصبية .... إلخ يختمه بهذه الجملة القرآنية :
﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ (٣٨) .

- فصل فى أن البيت والشرف بالأصالة ، يختمه بهذه الآية الكريمة :
﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣٩) .

---

(٣٦) سورة آل عمران الآية ٤٧ .
(٣٧) سورة سبأ الآية ١ .
(٣٨) سورة الأنعام الآية ٧٣ .
(٣٩) سورة النور الآية ٣٥ ، ٦٤ ، وسورة الحجرات الآية ١٦ ، وسورة التغابن الآية ١١ .

- فصل فى البيت والشرف للموالى إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم ، يختمه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٤٠) . ثم يردف بجملة تمجيد المولى وتكريم الرسول قائلاً : «والله ورسوله أعلم» .

- فصل فى أن من عوائق الملك حصول الترف ، يختمه بالمعنى القرآنى : « والله يؤتى ملكه من يشاء » وهو مأخوذ من الآية القرآنية :﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ﴾(٤١) .

- فصل فى أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط ، يختمه بمجموعة من العبارات الابتهالية تتوسطها جملة قرآنية ، وذلك فى قوله : والله قادر على خلقه ، ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾(٤٢) . لا رب غيره .

- فصل فى أن البوادى من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار ، يختمه بجملتين قرآنيتين مجتزأتين من آيتين كريمتين وذلك فى قوله ، والله
﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ (٤٣) ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٤٤) .

- فصل فى أن الملك والدولة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية ، يختمه بعدة معانٍ قرآنية تتوسطها آية كريمة وذلك فى قوله : والله قادر على ما يشاء
﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٤٥)
وهو حسبنا ونعم الوكيل . والأصل فى الجملة الأخيرة الآية الكريمة :
﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (٤٦) .

---

(٤٠) سورة الحجرات الآية ١٣ .
(٤١) سورة آل عمران الآية ٢٦ .
(٤٢) سورة الرعد الآية ١٦ .
(٤٣) سورة الأنعام الآية ٦١ .
(٤٤) سورة الرعد الآية ١٦ .
(٤٥) سورة الأنعام الآية ١٠١ .
(٤٦) سورة آل عمران الآية ١٧٣ .

- فصل فى أن الدعوة الدينية بغير عصبية لا تتم ، يختمه بعلة ابتهالات لله سبحانه ، وأكثر من جملة فى تمجيد ذاته قائلا : والله سبحانه أعلم وبه التوفيق لا ربّ غيره ولا معبود سواه .

- فصل فى أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب .... يختمه بالآية الكريمة :
﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٤٧) .

- فصل فى أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها فى أصلها ، يختمه بآيتين ، ثم تمجيد للذات العلية قائلاً :
﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (٤٨) ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (٤٩) .
والله سبحانه وتعالى أعلم .

- فصل فى أحوال الموالى والمصطنعين فى الدول ، يختمه بآيتين كريمتين هما :
﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٠) ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥١) .

- فصل فى حقيقة الملك يختمه بالآية الكريمة : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ (٥٢) .

- فصل فى أن إرهاف الحد مضرّ بالملك ، يختمه بالآية الكريمة :
﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ (٥٣) .

- فصل فى مذاهب الشيعة فى حكم الإمامة يختمه بجملة طويلة تضم آيتين كريمتين وذلك فى قوله : ﴿ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (٥٤)

---

(٤٧) سورة آل عمران الآية ٩٧ .
(٤٨) سورة طه الآية ١١٤ .
(٤٩) سورة الأنبياء الآية ٨٣ .
(٥٠) سورة آل عمران الآية ٦٨ .
(٥١) متكررة فى خواتيم آيات كثيرة من سورة هود ٤ ، والروم ٥٠ ، والشورى ٩ ، والحديد ٢ ، وغيرها .
(٥٢) سورة الأنعام الآية ١٨ .
(٥٣) سورة الروم الآية ٥٤ .
(٥٤) سورة فاطر الآية ٨ .

إلى صراط مستقيم ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[٥٥] .

هكذا رأينا ابن خلدون يختتم كل فصل من فصول مقدمته بآية قرآنية أو أكثر ، وأحياناً يختمه بحديث نبوى شريف ، هذا فضلاً عن الابتهالات إلى الذات الإلهية ، والتمجيدات للذات العلية فى عبارات بليغة شتى ، وصيغ نورانية كثيرة ، وهو يلتزم فى أكثر الخواتيم الجملة التى اصطلح علماء المسلين على قولها فى نهاية كل رأى يدلون به تحوّطاً من الخطأ ، وتواضعاً فى السلوك ، وهى « الله أعلم » أو « والله ورسوله أعلم » أو « والله سبحانه وتعالى أعلم » .

لقد اخترنا عدداً من فصول المقدمة بالتتابع بلغ عددها ثلاثة وثلاثين فصلاً ، فوجدنا أن عدد الآيات القرآنية التى ختمها ابن خلدون بها بلغ أربعاً وعشرين آية ، وحديثاً نبويًّا شريفاً ، وعدداً من الجمل ذات المعانى القرآنية ، وعدداً آخر من عبارات التمجيد الإلهى وصيغ الابتهال الربانى ، كل ذلك فضلاً عن الآيات القرآنية الكريمة الكثيرة التى يضمنها ابن خلدون فصوله كأمثلة يسوقها ، وأدوات استشهاد يقدمها بين يدى القارئ . ونقد لاحظنا – مثلما يلاحظ أى قارئ يفهم العربية – أن الجمل أو الآيات القرآنية التى ختم بها ابن خلدون هذا الفصل أو ذاك من فصول المقدمة إنما اختارها بدقة وإحكام لكى تتناسب مع موضوع الفصل وفحواه ومغزاه ، وهو أمر من الوضوح بمكان لكل من يفهم اللغة العربية . نقول ذلك لأن عدداً من الباحثين الغربيين قد هالهم هذا الكم العظيم من الآيات القرآنية الذى تضمنته المقدمة من أمثال « دى بور » الذى يرى أن الدين لم يؤثر فى آراء ابن خلدون العلمية ، أو « شميت » الذى يقرر أن الآيات القرآنية الكثيرة التى ذكرها ابن خلدون فى خلال المقدمة ليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله ، وإنما يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه فى بحثه متفق مع نصوص القرآن .

---

(٥٥) سورة سبأ الآية ٢٣ .

إن مثل هذه الأقوال يدحضها ذلك التناسق الذكى الذى صنعه ابن خلدون وهو يجانس بين الآيات القرآنية وموضوع دراسته ، حسن استشهاد وبراعة تدليل ، ودقة تمثيل .

لكأنما تنبأ ابن خلدون خلدون أن بعض دارسى أعماله سوف يحرفون فكره الإسلامى ، وينزعون به إلى منازع مضادة ، فحرص على أن يجعل مقدمته إسلامية الوجه ، قرآنية المبنى والتدليل ؛ ومن ثم فإننا نقرر فى ضوء ما سلف أن هذا المجتمع الإنسانى والعمران البشرى الذى وضع ابن خلدون أساسه ولبناته ، قد ربطه بالرباط الفكرى الإسلامى فى كل شعبه ، يستوى فى ذلك نظم الحكم والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والثقافية ، وسوف يصل إلى حكمنا هذا كل من يدرس ابن خلدون ومقدمته دراسة موضوعية واعية ، بغير ما أحكام سابقة أو غايات مستهدفة .

بقى أن نوضح أن ابن خلدون بنى نظريته فى العمران البشرى والاجتماع الإنسانى على علم التاريخ وأحداثه ، بعد تنقيتها من الزيف ، وتصويبها من الخطأ ، وتجريدها من الغلو ، من خلال منهج دقيق وضعه علماء الحديث الشريف هو علم الجرح والتعديل ؛ ومن ثم فإن المنهج التصحيحى الذى طبقه ابن خلدون فى دراسته للتاريخ هو منهج إسلامى أصيل ، غير متأثر فيه بهذا أو بذاك من فلاسفة اليونان ، ومنه انطلق إلى تصوّر وجيه ، انتهى به إلى نظريته فى العمران التى أوضحنا ركائزها الدينية وأصولها الإسلامية .